الدلالة و الاعجاز اللغوي

الإعجاز اللغوي هو العلم الذي يهتم بالمفردة من حيث شكلها ومضمونها وغايتها، وعرفنا أنّ المراد بالشكل هو مظهرها الصوتي من حيث مخارج الحروف وصفاتها وكل ما يتعلق بالجانب الصوتي للغة. ومنه فالإعجاز الصوتي هو الحديث عن الأصوات ودورها في كشف المعنى وإبرازه لكونها _الأصوات_ جزء أساسي في بناء اللغة التي عرّفها ابن جني بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم. فبالصوت تتشكل الكلمات ومنها تتألف الجمل والتراكيب.

وقد نظر اللغويون القدامى للصّوت بكونه مرادفا للحرف وقد ذهب مذهبهم بعض من المحدثين أمّا البعض الآخر فقد فرّق بينهما بكون الصّوت هو الصّورة السّمعية التي تصلنا أمّا الحرف فهو الصّورة الكتابية النمطية. وبغض النظر عن هذا الاختلاف فإنّ ما يهمنا هنا هو النظر للصّوت بكونه جزء أساسي في بناء الكلمة وتجلي المعنى.

أولا: الإبدال

_1تعريف الإبدال: ويراد به إبدال حرف مكان حرف آخر لضرورة ما أو استحسانا أو صنعة. وقد زخر القرآن الكريم بضروب كثيرة منه.

_2نماذج من الإعجاز الصوتي عن طريق الإبدال: من أمثلة الإعجاز الصوتي عن طريق الإبدال ما نجده في قوله تعالى:" لست عليهم بمصيطر" فهنا تمّ إبدال حرف السين بحرف الصّاد "وتبدو المناسبة واضحة بين طبيعة الصوت المفخم والموقف التي تدل عليه الآية، فالخطاب موجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، أي: لست يا رسول الله بمتسلط عليهم تجبرهم على الإيمان أو تكرههم عليه، وهي دعوة من الله إلى نبذ التجبر على الناس وأمرهم بالقوة، لأن الهداية لا تكون إلا من عند الله، فلما كانت السيطرة تدل على التجبر والقوة جاءت اللفظة بالصّاد المفخمة المجسّدة للموقف بدلا من السين المهموسة التي تدل في الغالب على اللين والهمس".

ثانيا: مظاهر التناسق والتناسب

_1إيحاء الصوت بالمعنى: ويراد به أن يدل جرس الصوت على المعنى وقد اعتمد المفسرون على تمييز المعنى من خلال صفات الصوت ومخارجه. فمثلا كلمة "ضيزى" في قوله تعالى "ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى" النجم 21_22، هناك من عالجها في تفسيره وقال بأنه لا يعرف معنى ضيزى ولكن وقع أصواتها وغرابة لفظها توحي بمعناها. فهذه اللفظة الغريبة عبّرت بأحسن صورة عن المعنى" ولا يكون حسنها على غرابتها إلا أنها تؤكد المعنى الذي سيقت له بلفظها وهيئة منطقها، فكأن في تأليف حروفها معنى حسيا وفي تآلف أصواتها معنى مثله في النفس."

وقد يكون الصوت مفردا كما هو الحال في كلمة تلظّى في قوله سبحانه "فأنذرتكم نارا تلظّى" الليل 14. صوت الظاء يبعث على الشعور بالخوف، فحتى من لم يدرك معنى تلظى يكفيه أن يسمعها ليستشعر بحدّة الموقف وشراسته.

وغير هذه الأمثلة كثير مما أدّى الصوت فيها دورا بارزا في تحديد المعنى وتوجيهه، فالصّوت له مكانته المهمة في البناء اللغوي.

_2الإيقاع: ويراد به تلك الموسيقى التي يبعثها تسلسل الأصوات في الكلمة القرآنية مفردة كانت أو مجتمعة مكونة تركيبا لغويا هادفا يحمل العديد من المعاني بين الترغيب والترهيب. "فاللغة العربية لغة موسيقية فنيّة، وتبدو موسيقيتها في اختلاف مخارج الحروف، واختلاف صفاتها، واختلاف حركاتها وسكناتها، كما تبدو في اختلاف الكلمات من حيث جرسها ونغماتها، وفي اختلاف العبارات من حيث إيقاعها". فمخارج الأصوات وحركاتها وغناتها ومداتها تنسج إيقاعا موسيقيا مؤثرا يجذب النفس البشرية إليه، فالعرب منذ نزوله أدركت أذنهم ذلك الوقع الحسّي الذي يتميز به فيبعث راحة نفسية تميل إليه النفس.

والإيقاع الموسيقي في القرآن الكريم يتألف من عدّة عناصر هي:

_1من مخارج الحروف في الكلمة الواحدة.

_2من تناسق الإيقاعات بين كلمات الفقرة.

_3من اتجاهات المدّ في الكلمات.

_4من اتجاهات المدّ في نهاية الفاصلة المطردة في الآيات.

_5من حرف الفاصلة ذاته.

وقد يأتي الإيقاع الموسيقي على شكل دعاء وأمثلته كثيرة في القرآن الكريم نذكر منها " ربّنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النّار ربّنا إنّك من تدخل النّار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ربّنا إنّنا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربّكم فآمنّا ربّنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنّا سيّئاتنا وتوفّنا مع الأبرار ربّنا وآتنا ما وعدتّنا على رسلك ولا تُخزنا يوم القيامة إنّك لا تخلف الميعاد" آل عمران 191_194.

_3التكرار: هو ظاهرة من الظواهر البلاغية التي شهدها القرآن الكريم وكانت من محاسن الفصاحة فيه، والتكرار وما يحدثه من نفور وإطناب في الفنون الأدبية شعرها ونثرها هو نفسه الذي يعد ضربا من الإعجاز في القرآن لما له من موسيقى عذبة تستحسنها النفس وتميل إليه الأذهان. فتكرار الصوت يضفي بعدا موسيقيا يعد مكونا للبنية الصوتية داخل التركيب اللساني.

والتكرار في القرآن الكريم شمل الأصوات والتراكيب والقصص ولكل منها دلالتها الخاصة، ومايعنينا في موضعنا هذا تكرار الأصوات. ومن أمثلته ما جاء في تكرار صوت الراء إذ يعتبر صوت "تكراري انفجاري مجهور، فهو يؤلف صورا مشحونة بالعنف والشدّة غالبا، ومن تلك الصور التكرارية ما ورد في قوله تعالى "فالمدبرات أمرا يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة يقولون أإنا لمردودون في الحافرة" النازعات 5_10. فتكرار صوت الرّاء هنا عكس المشهد المخيف لحال الناس يوم القيامة وأهوالها.